المَوسُوعة الصَغيرة
١٧٤

ملاحظات تمهيدية حول معنى الحضارة

صلاح المختار

الموسوعة الصغيرة

تصدرها
دائرة الشؤون الثقافية والنشر
بغداد / الجمهورية العراقية

ـ المؤلف في سطور ـ

○ متنوع الاهتمامات رغم تخصصه في السياسة والفكر السياسي .

○ ألف بضعة كتب : الاعتراف باسرائيل ومستقبل الثورة العربية ، صدر عام ١٩٧٣ عن دار الطليعة في بيروت ، وبعض القضايا الايديولوجية للبورجوازية الصغيرة ، صدر عام ١٩٧٥ عن نفس الدار ، وتحليل نمط التفكير الستراتيجي الاميركي ، صدر عام ١٩٧٩ عن نفس الدار .

○ نشر عشرات البحوث الفكرية والسياسية .

○ يكتب في الصحف بشكل منظم في القضايا السياسية .

○ أنجز بحثا طويلا بعنوان «نقد بعض النظريات العلموية المعادية للعرب» وسيدفع به للطبع قريبا .

الموسوعة الصغيرة

(١٧٤)

١٩٨٦

ملاحظات تمهيدية حول معنى الحضارة

صلاح المختار

(١)

١ ـ مدخـــل :

تحديد معنى الحضارة (Civilization)*، وبالتالي معنى المتحضر (Civilized) ، لم يكن موضع اتفاق المهتمين بهذا الموضوع ، فلقد تباينت الاراء حول معنى هذين المصطلحين منذ البدء واستمر التباين ، والتناقض، حتى عصرنا الراهن الذي يوصف عادة بأنه « عصر أرقى حضارة » .

ولئن كانت هذه التباينات تعتبر مشكلة ثقافية في الدول المتقدمة فانها في العالم الثالث ، الذي يعيش حالة

---

* سترد كلمة « ثقافة » في سياق الدراسة ، ونحن لا نقصد بها (Culture) التي تعني حضارة في بعض المجتمعات، وانما نعني بذلك المصطلح ذلك الجزء من الحضارة الذي يشمل الافكار والمفاهيم وحصيلتها .

الاستفادة من منجزات الحضارة المعاصرة والوقوع فريسة لها في نفس الوقت، تكتسب أبعادا أخرى تجعلها مشكلة اجتماعية ـ سياسية ـ اقتصادية ـ نفسية بالاضافة الى كونها مشكلة ثقافية • من هنا تطرح ضرورة اعطاء رأي محدد ومبسط بصدد مشكلة تحديد معنى الحضارة بصفة عامة ، والدخول في خصوصية هذا المعنى انطلاقا من واقع العالم الثالث ، الذي تشكل أمتنا العربية جزءا منه •

ولتسهيل هذه العملية سنطرح أولا التعريف البورجوازي للحضارة ، ثم نتناول ثانيا التعريف الاشتراكي لها ، ونعرج ، ثالثا ، على تحليل بعض المشاكل المركبة للحضارة في العالم الثالث وما تفرزه من آثار سلبية وايجابية على الفرد والمجتمع •

المفهوم البورجوازي للحضارة

رغم تعدد الاراء والمفاهيم البورجوازية للحضارة بيد أن اكثر المفاهيم انتشارا ، واستخداما ، في العالم الرأسمالي هو ذلك الذي يحدد الحضارة في أنها مجموعة المنجزات التكنولوجية ـ العلمية ـ الثقافية التي توصلت اليها البشرية عبر تاريخها واختمرت في العقود الاخيرة ، واصبحت أساسا لنمط الحياة العامة .

وينطوي هذا التحديد على عدة مواصفات ، أو شروط ، يمكن اجمال أهمها فيما يلي :

١ ـ وجود درجة عالية من التقدم العلمي المتمثل في استخدام العلم كأهم مصادر التطور العام عبر مكتشفاته ومخترعاته .

٢ ـ دخول التكنولوجيا ، بصفتها الجانب التطبيقي للعلم ، الى مختلف جوانب الحياة العامة ،

وحلول الادوات التكنولوجية محل البشر في الكثير من المجالات ، حتى ان الجسد البشري أخذ ينحط بايولوجيا بسبب الافتقار الى الجهد البدني بالنسبة لشرائح اجتماعية واسعة .

٣ ــ ارتقاء شامل للثقافة بمختلف فروعها بفضل تطور الطباعة وصناعة الورق وتكدس منجزات العلوم وخبرات تقدم الفكر الانساني .

٤ ــ تقدم شامل للفنون الانسانية بسبب الارتقاء الثقافي والتحسن النسبي في مستويات المعيشة .

٥ ــ زيادة الاتصال داخل الامم وعبر العالم وتضييق فجوة الانقطاع بسبب المسافات الجغرافية والحدود القومية والموانع المصطنعة ، وقد تحقق ذلك عن طريق التحسن الهائل في وسائل الاتصال اللاسلكي والسلكي وعبر الاقمار الصناعية ، وعن طريق التحسين الجذري لوسائل النقل العالمية والقومية كالطائرات العملاقة والقطارات السريعة ... الخ .

٦ ـ تقدم سريع وبارز في هندسة البناء التي غيرت نمط الحياة بصورة حاسمة ، وانتقلت بها الى مرحلة المجمعات السكنية العمودية ذات الكثافة السكانية العالية .

٧ ـ تقدم بارز في الطب في مختلف فروعه .

٨ ـ ان توفر وسائل اتصال فعالة قد خلفت تداخلا في علاقات دول العالم يصعب بعده فصل أية دول تنتمي للحضارة الراهنة ، سواء كان انتماؤها انتماء اسهام في تقدم الحضارة أو انتماء استفادة منها والسقوط ضحية لها ، وهذا التداخل العالمي أزال الكثير من مصادر الخلاف والتباين في مستويات الفهم الانساني للعالم وقضاياه ومشاكله غير المرحلية ، أي تلك المتعلقة بالوجود الانساني .

٩ ـ ان هذا التقدم الهائل، العلمي والتكنولوجي والثقافي ، قد وضع الانسان « المتحضر » ازاء اكتشافات هزت ثوابت تفكيره التقليدية وجعلته يعرف ان الوجود

الانساني في هذه الارض ليس محور الكون ، كما أنه ليس بالمسألة السهلة الفهم أو التفسير . وقد عززت هذه الاتجاهات ومكتشفات الفضاء ونظريات الكون ، خصوصا نظرية البرت انشتاين العالم الفيزياوي الشهير، المسماة « النظرية النسبية » ، والتي تركت العقل البشري حائرا وقلقا يتخبط في محاولة لا نتيجة حاسمة لها لفهم الكون وحل الغازه .

وفي السنوات الخمس الاخيرة ظهرت نظريات فضائية ثورية الى حد مخيف بعضها يطرح احتمال « اعدام » الحياة في ثوان وتبخر الكرة الارضية اذا انفجر نجم قريب ، أو القول بأن الارض مجرد مختبر كبير لاختبار انواع معينة من الحياة بضمنها الحياة الانسانية من قبل مخلوقات مذهلة الذكاء خارج كرتنا الارضية... الخ . ان هذه الاراء والنظريات سواء منها ما تم اثباته أو مالم يثبت حتى الان ، تعتبر ثمرة طبيعية لحضارة الثلث الاخير من القرن العشرين ، وهي تسهم في عملية

دفع الانسان الى الاحساس بالضعف ازاء الكون والافتقار الى اليقين الذي طبع النصف الثاني من القرن التاسع عشر •

١٠ ــ سيادة « النزعة العقلانية » واضمحلال العواطف (الرومانسية) في التعامل العام داخل الامم المتقدمة وفيما بينها • و « العقلانية » المقصودة ليست مجرد استخدام العقل في تخطيط وتقرير ودراسة الخطوات قبل الاقدام عليها في مختلف الاصعدة ، بل لقد تجاوزت هذا الفهم وأصبحت تأخذ أشكالا غاية في التعقيد ، كسيادة الفلسفة البراغماتية في المجتمعات الغربية، بصورة عملية ، حتى في الاوساط ذات الاتجاهات الفلسفية المختلفة مع البراغماتية •

والبراغماتية تعني هنا بالتحديد : اعتبار المنفعة والربح والفائدة المتحققة من العلاقات أو المواقف هي اساس صوابها ومشروعيتها وضرورتها وليس الحق والعدل الاخلاق والمبادىء • والمثال على ذلك هو القول

« بأن الشعب العربي الفلسطيني قد ظلم حينما طرد من أرضه الا أن هناك « أمرا واقعا » الان يتمثل في وجود « اسرائيل » ، وان على العرب التخلي عن عدائهم « لاسرائيل » حرصا على ان لا يخسروا كل شيء ويخسر العالم معهم الكثير بسبب الحروب وغيرها » . أي أن المنطق البراغماتي الغربي السابق يهمل الحقوق ومفاهيم العدالة ويرفض مفاهيم الاخلاق من أجل واقع قائم حتى لو كان غير عادل ولا اخلاقي ، من أجل استمرار المنافع وتجنب الخسائر .

١١ــ اضعاف أو تحطم الروابط الاجتماعية الاساسية السابقة للرأسمالية ، كالروابط العشائرية والعائلية والقومية ، وطرح الرابطة العالمية (الكوزموبوليتية) كبديل معترف به يعبر عن عصر الحضارة الرأسمالية عصر الانتاج الكلي ، الشمولي ، المنضبط الكترونيا (عصر السايبرانتيك) .

(٢)

نتائج المفهوم البورجوازي

وبسبب هذه التحديدات والشروط فان تعريف الحضارة ، يعد مجموعة المنجزات التكنولوجية ـ العلمية ـ الثقافية التي توصلت اليها البشرية عبر تاريخها ، واختمرت في العقود الاخيرة ، ثم اصبحت أساسا لنمط الحياة العامة، ان تعريف الحضارة على هذا النحو وتطبيقه عالميا في محاولة خطرة لتقسيم البشر وتصنيفهم ، قد قاد الى نتائج عملية لا يمكن اغفال دورها في تأزم العلاقات الدولية والحروب والنزعات العدوانية والاستغلال الشامل للعالم الثالث .

ولعل أول مايترتب على هذا التعريف هو الاتجاه نحو تقييم البشر وتصنيف موقعهم في الوجود تبعا

لتوفر أو عدم توفر الشروط السابقة للحضارة ، فاذا كان الشعب ، أو الامة ، المراد تحديد موقعه وأهميته لا يملك من هذه الشروط شيئا ، أو يملك الشيء القليل، فانه « غير متحضر » ، ويفتقر الى « ابسط مقومات الابداع » والاسهام في التقدم البشري ، وبالتالي ، فانه محكوم عليه بأن يكتفي بدور التابع والخادم «للشعوب المتحضرة » التي « تعرف كيف تبدع وكيف تستخدم ثروات الطبيعة وتخترع الوسائل الملائمة لذلك الاستخدام » .

لقد حصل هنا ترتيب محدد للبشر : فهناك بشر مبدعون وخلاقون « بالطبع » وهم أصحاب المنجزات العلمية والتكنولوجية والثقافية الراهنة ، ومقابل هؤلاء، أو للدقة وحسب معاني تلك الاراء ، « وتحت هؤلاء » تأتي « شعوب خاملة غبية » لا تملك « بالطبع » امكانية التفكير الخلاق والمبدع نظرا لعدم امتلاكها أغلب شروط الحضارة الموصوفة أعلاه . لقد استخدم العلم

وتطبيقه الشامل ، اي التكنولوجيا ، وتتائج هـــذا التطبيق ، كمعيار وحيـــد لتحديد استعداد البشـــر « للتحضر » ومقدرتهم على الاسهام في الحضارة •

وثاني مايترتب على استخدام هذا المعيار تقسيم البشر على اساس عنصري ، فما دام الابداع والتقدم والتحضر هو « نتاج شعوب بيضاء ، او انكلــو ــ سكسونية » وما دام دور الشعوب الملونة (السمر ، السود) هو الاقتياب الطفيلي على نتاج البيض : فان « العرق الابيض متفوق على بقية العروق البشرية » •

لقد وجدنا أنفسنا أزاء وضع لا انساني بسبب استخدام معيار وحيد لتعريف الحضارة ، فلقد نسبت كل منجزات البشرية وتقدمها الى « العرق الابيض » واعتبر ذلك اساسا لتقسيم البشر لونيا ووضع درجات مختلفة لقيمة البشر تبعا للدور الحضاري ، حســب المفهوم البورجوازي •

وثالث مايترتب على التحديد هو طرح تبريــر « أخلاقي » وعملي للاستغلال الرأسمالي أساسه القول

« بأن وجود درجات مختلفة من الامكانات والذكاء بين العروق ، أو الاجناس ، البشرية يمنح للمتفوقين والاذكياء منهم حق التصرف بثروات ومصائر الاقل ذكاء » . والسبب هو ان « تخلف » و « محدودية ذكاء » الشعوب الملونة لايتيح لها امكانية استغلال ثرواتها أو موقع بلدها ، وهو أمر يضر بالبشرية كلها لذلك يجب على « الشعوب المتحضرة » التصرف نيابة عن « الشعوب المتخلفة » بثروات وسيادة الاخيرة حتى لو أدى ذلك الى اضطهاد الشعوب الملونة وابادة قسم منها ، وهو أمر يخدم كل البشرية بما فيها « الشعوب المتخلفة » !

ان هذا المنطق الاستعماري ـ الامبريالي ، الذي اتخذ صيغا مختلفة عبر التاريخ ، هو الذي استخدم لتبرير جرائم الاستعمار والامبريالية والصهيونية والنازية ضد الشعوب والحركات التحررية ، وهو

الذي وضع كتبرير فكـري واخلاقي لنهـب العالـم الثالـث •

رابع مايترتب على هذا التحديد هو ان تبريـر النهب والاستغلال الرأسماليين لايقتصر على ضحيـة خارجية ، هي العالم الثالث ، بل يتناول ضحية أخرى هي « الشعوب المتفوقة » ذاتها حيث ينقسم المجتمع الى طبقات تنسب لقسم منها صفات « الابداع والخلـق والمقدرة على القيادة » فيما تنسب لطبقات الاغلبيـة صفات تلقي التوجيهات والاعتماد على ذكاء المبدعين ، وهكذا يضرب التمييز الامة التي تحكمها البورجوازية ذاتها ويخضع أغلبية ابنائها لاستغلال طبقي بشع •

ان المبالغة في تضخيم الفوارق بين ذكاء وقابليات البشر لابد وأن تفضي الى الاستغلال الطبقي داخل الامة، كما أن اعتبار التقدم الحاصل لدى الامـم الغربية ، والذي يقابله تأخر الامم الشرقية ، « هو حصيلة طبيعية لتباين الانتماء العرقي » لابد وأن يفضي الى التمييز

العنصري وبروز نزعات عدوانية عرقية على صعيد دولي .

ان النتائج العملية الاربع المذكورة للتحديد البورجوازي للحضارة تشكل اطارا سياسيا وفكريا للنشاط الاستعماري والامبريالي على نحو مكشوف ولا يمكن اخفاؤه أو انكاره ، ولذلك فان البشرية تتجه على نحو متزايد ، لادانة هذا التحديد .

الا ان التعريف لا يكشف عن بقية عوراته ومخاطره بسهولة ؛ لان ثمة جوانب اخرى يمكن ان تكون موضع خلاف ، وبالتالي موضع تقبل حتى في أوساط تنتمي للعالم الثالث .

وأهم مخاطر التعريف البورجوازي هو انه يفصل بشكل متعمد بين الحضارة كاطار للتقدم العلمي — التكنولوجي — الثقافي من جهة وبين مكونات الشخصية الانسانية وحوافز سلوكها وضوابطه العامة من جهة ثانية .

ان الانسان المتحضر ، حسب التعريف ، هو الذي يتقن استخدام التكنولوجيا المعاصرة ويتفهم العلم ويفهمه ويسهم في انجازاته ، ويتميز بالمقدرة على الاستخدام العقلاني للاشياء ، ويقيم علاقاته الاجتماعية متأثرا بعلاقاته التكنولوجية وبذلك نراه متعلما ـ مثقفا منسجما مع التكنولوجيا متحصنا ضد المرض والفقر المطلق ، منظما .. الخ .

لكن هذا التعريف يتجاهل عمدا طرح السؤال التالي : هل يوجد انسجام بين التقدم العلمي ـ التكنولوجي للانسان « المتحضر » وبين منطلقات سلوكه الاجتماعي ؟ ان اغلبية المفكرين البورجوازيين يحاولون الهرب من الاجابة المباشرة بطرح جواب عمومي ، مضلل: ان الانسان بطبيعته غامض بدوافعه وقوانين سلوكه لذلك يستحيل التحكم بهذا السلوك أو قمعه وتغييره ! ويجد هذا الجواب أساسه في مئات كتب التحليل النفسي بشكل خاص ككتب سيجموند فرويد ، وكتب علم النفس البورجوازي بصفة عامة .

ولا يضاح هذه النقطة الجوهرية نشير الى أنها تعني أن التعريف لايشترط ان يكون سلوك الانسان العام والخاص خاضعا أو منسجما مع مستواه الحضاري، فقد يقوم انسان متحضر بافعال لاعقلانية كالقتل أو اضطهاد الاخرين بصورة فردية أو جماعية (استعمار شعوب) دون أن يعتبر ذلك مناقضا لتقدمه العلمي والحضاري ، لان الحضارة هي اطار عام لحياة الانسان في الوجود وليست منطلقا ومحفزا لنوازعه وتصرفاته الذاتية .

والنموذج الاميركي للحضارة يقدم لنا صورة واضحة لهذا التناقض بين التقدم التكنولوجي — العلمي—الثقافي وبين محفزات ومقررات السلوك الفردي والرسمي ، فالنظام الاميركي رغم كل تقدمه الهائل ارتكب جرائم جماعية لاتختلف كثيرا ، بل تفوق كثيرا ، اعمال الابادة والقتل الجماعي لدى الاقوام البدائية وفي بطون التاريخ . بل يمكن القول ان القتل لدى البدائيين

هو ثمرة لبدائيتهم وحاجتهم المادية ، وهو قول يبرر الى حدما هذه الافعال ، ولكننا لا يمكن ان نفهم كيف يقوم « اكثر النظم في العالم » اكتفاء ماديا علميا وتكنولوجيا بابشع الجرائم الجماعية ضد الشعوب كما فعل في فيتنام مباشرة ، وكما يفعل في فلسطين بواسطة الصهاينة ، أو في العالم كله عبر وكالة المخابرات الاميركية والنظم العميلة لواشنطن .

لقد دبر النظام الاميركي عشرات الانقلابات وتسبب في قتل عشرات الالوف من البشر ، ونهب مليارات الدولارات من فقراء العالم فزاد فقرهم فقرا وتخلفهم تخلفا دون أن تردعه « حضاريته » أو تجعله يدرك ان تلك الافعال همجية ، بل في منتهى الهمجية ! وتبدو صورة التناقض بشكل آخر : فقتل الملايين وموتهم جوعا بسبب التدخلات الاميركية في العالم الثالث عمل مبرر ومشروع ولكن نفس هذا النظام يشن حملات منظمة ويهدد بالحرب والغزو حينما تقوم بضعة اقطار نامية

منتجة للنفـط بزيادة أسعار نفطهـا بقـدر ضئيل ردا على الزيادة الهائلة في اسعار السلع الاميركية وغيرها .

ان رؤية الالاف يموتون جوعا في الهند وافريقيا والمئات يموتون قتلا بالطائرات والقنابل الاميركية في فلسطين ولبنان ومصر وسوريا وروديسيا وجنـوب افريقيا ونيكاراغوا وسوموزا ، ان ذلك كله لايحرك « الضمير المتحضر » للنظام الاميركي ، لكنه عند أول بادرة مضايقة يتعرض لها يهدد بشن الحرب وابادة الناس في العالم الثالث لحماية مستوى الاسعار داخل أميركا وعدم « ازعاج المواطن » الاميركي بالوقوف صفا طويلا بانتظار البانزين !

ان حضارة النظام الاميركي ، اذن ، تنحصر في اطار خارجي لايشمل حوافز الانسان وضوابطه ، ولا تضع هدفا لها تنمية وتطوير الروادع الخلقية لـدى

الانسان لتصبح عملية التحضر متوازنة يتم فيها تحقيق تقدم خارجي (علمي ، تكنولوجي - ثقافي) جنبا الى جنب مع تحقيق تقدم داخلي في قيم الانسان وضوابط سلوكه ٠

(٣)

المفهوم الاشـــتراكي للحضارة

يمكن القول بأن التعريف الاشتراكي للحضارة لاينافض المفهوم البورجوازي فحسب ، بل يتجاوزه ويحتويه عبر توسيع شروط ومواصفات التحضر مـــن جهة ، وقلب أولويات هذه الشروط مـــن جهة ثانية .

فالحضارة تبعا لهذا المفهوم تعني استخدام العلـــم ومنجزاته (التكنولوجيا ، الثقافة من أجل تحقيق فهم أفضل ووضع أفضل للانسان يتيحان له فرص التصرف طبقا لقيم ومعايير انسانية ، أي تحترم الانسان بصفته انسانا وتخضع كل شيء لخدمته ، متجاوزة بذلـــك الدوافـــع البدائية الفجة ، أو الانانية .

اذن التعريف الاشتراكي اذ يلتقي مع التعريف البورجوازي ، حول اعتبار التقدم في التكنولوجيا والعلم والثقافة ... الخ أحد أهم سمات التحضر والحضارة ، فانه يتجاوزه وينقضه عبر الشرطين التاليين :

الشرط الاول : ان العلم والتكنولوجيا والتقدم الاجتماعي ليست أهدافا مطلقة وقائمة بذاتها ، بل هي مجرد وسائل واطارات وعوامل مساعدة تخدم هدفا أهم وأبعد واسمى وهو حل مشاكل الانسان وتحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاهية والعدالة .

الشرط الثاني : ان منجزات الحضارة يجب أن تقترن بمنجزات على صعيد تربية الانسان المتحضر . والتربية المقصودة هنا ليست التربية الكلاسيكية ، بل هي العمل الجاد لتنمية الميل الانساني صوب امتلاك نوع من الضمير الرادع للانسان على صعيد فردي وجماعي ، والذي يحل تدريجيا محل عقاب القانون أو المجتمع . وبالتالي فان التحضر يكون أحادي الجانب

ويفرز ميولا أنانية مدمرة ، فرديا وجماعيا ، اذا لم يقترن بتنمية خلق روادع وضوابط ذاتية في الانسان تكون بمستوى تقدمه العلمي ـ التكنولوجي .

ان التعريف والشرطين السابقين يوضحان مجموعة مهمة من أسس المفهوم الاشتراكي للحضارة ،واهم هذه الاسس ما يلـي :

١ ـ ان التقدم العلمي ـ التكنولوجي اذا لم يقترن بروادع أخلاقية رقيها يوازي رقي التكنولوجيا على الاقل فان التحضر يكون عبارة عن مغامرة يتعرض لها الوجود الانساني يوميا . لان امتلاك وسائل الدمار الجزئي والشـامل من قبل بشـر محدودي الروادع الانسانية وكثـيري النوازع الهمجية الانانية ، يطرح دائما احتمال حدوث ابادة للملايين ، ولربما ابادة الجنس البشري برمتـه .

٢ ـ إن الاساس والمحور في الحضارة والتحضر ومعيارها الاكثر صوابا هو مدى النجاح في خلـق

الانسان الانساني ، أو بتعبير آخر الانسان الـــذي يتصرف طبقا لقيم وضوابط راقية محورها وهدفهـا احترام الانسان لذاته والعمل طبقا لهدف حل مشاكله وازالة المظالم التي يتعرض لها كفرد وكجزء من مجتمع أو طبقة أو أمـــة •

٣ ــ ان التقدم العلمي ـ التكنولوجي ينبغي أن يكون مطابقا أو قريبا من التقدم في اخلاقية الانسان والمجتمع، وبالتالي فان احدى سمات المجتمعات المتحضرة هـي تخطيط التقدم العلمي ـ التكنولوجي ليكون خاضعا أو تابعا أو معززا للتقدم الاخلاقي لدى الانســان والمجتمع •

٤ ــ ان جهلنا للكثير من طبيعة الانسان وطبيعة الكون لاينبغي أن يكون دافعا لاطلاق الميول الانانية والعدوانية، أو الاستسلام لنزعة تشاؤمية بصدد مستقبل الانسان وقيمته ، كما تفعل البورجوازية ، بل لابد من مواصلة العمل على تحقيق فهم أفضل للانسان والكون

جنباً الى جنب مع التقدم التكنولوجي ـ العلمي ، ومع تنمية القيم الاخلاقية الراقية في المجتمع . لان الفهم الافضل للانسان والطبيعة في المحصلة الاخيرة ، لن يتم الا في اطار جهد مزدوج : تطوير قابلية أخلاقية لدى المجتمع من جهة ، ومواصلة التقدم العلمي ـ التكنولوجي الذي يعجل بانجاز هدف خدمة البشرية وفهم أوضاعها على نحو أفضل من جهة ثانية .

٥ ـ ان ماعرف عن طبيعة وخصائص الانسان بمساعدة العلم والتكنولوجيا،يؤكد أنه لا توجد فوارق بايولوجية بين البشر البيض والسمر والسود والصفر لان اللون لاتأثير له على الاطلاق على قابلية الانسان وميزاته، وقد أكدت النظريات العلمية والبحوث المرافقة لها أن اللون انما هو تكيف ، تحقق عبر ملايين السنين، مع البيئة ، وان بالامكان ، نظريا ، تغيير لون الانسان عبر التحكم بالغدة التي تفرز (الميلانين) ، وهي مادة التلوين عند الانسان .

٦ ـ واذا كانت الالوان صفة مشتقة وعرضية في البشر ، وبالتالي فانها لا تصلح كمعيار لتمييز البشر ، فان العلم قد اثبت ايضا بانه لاتوجد فوارق مطلقة بين ذكاء الافراد داخل المجتمع أو الامة الواحدة ، تبرر وضع درجات طبقية ، فالافراد يملكون فوارق نسبية وبسيطة في ذكائهم بحدود لا تسمح بتمييزهم اقتصاديا وطبقيا وعرقيا .

ان التمييز كان يمكن أن يتم لو أن شعبا ما أو افرادا ما يملكون تفوقا مطلقا على الشعوب الاخرى والافراد الاخرين ، لكن واقعة التفوق المطلق ، أو النوعي ، لم تظهر على الاطلاق في التاريخ .

وبقيت القاعدة هي أن البشر في كل الامم والمجتمعات يتمتعون بقابليات عقلية وبدنية واحدة ، يعبر عنها بنسب مختلفة تبعا لدرجة التطور العلمي ـ الاجتماعي ـ التاريخي ، دون وجود امكانية حذف قابلية الابداع من طبيعة الشعوب والافراد المحرومين

من الظروف التي تساعد على استخدام مواهبهم الفطرية .

وهذه الحقيقة تسقط الادعاءات العنصرية العرقية من جهة وادعاءات وجود طبقات داخل كل أمة لها الحق في الاستغلال والنهب بسبب تفوق ذكائها من جهة ثانية .

٧ ـ ان وحدة تكوين البشر وتقارب امكاناتهم الطبيعية تؤكد أن وجود أناس متقدمين وأناس متأخرين انما يعود الى ظروف محيطية تحدد مدى الاستفادة من امكانات البشر وحدود تنميتها ، فالفرد الذي يعيش في مجتمع تتوفر فيه وسائل العيش ، ضمن الحدود الدنيا اللائقة ، منذ طفولته ، ويتلقى التعليم الملائم ، ويحصل على الفرص المتكافئة في الدراسة والعمل والاجور والتقييم العام ، ان هذا الفرد يستطيع الاستفادة من امكاناته البشرية العقلية والبدنية وتنميتها فيبدو كانسان متحضر .

وعلى النقيض من ذلك لانستطيع أن نتوقع من فرد أو شعب ما محروم من الحد الادنى من وسائل العيش والتعليم وتمارس ضده مختلف أنواع التمييز غير الموضوعي عند تعيينه ومعاملته اجتماعيا ، أن يتصرف ، أو يبدو ، كانسان متحضر . ان همه ينحصر في مواصلة العيش أو البقاء سواء حقق ذلك بطرق مشروعة أو غير مشروعة . وبذلك تسقط لديه الروادع الذاتية وتتراجع امكانية بلورة روداع خلقية قوية ، وتصبح تصرفاته بدائية ، أنانية ، غبية ، لان ذلك هو الطريق الوحيد الذي وضع في بدايته ولم يعد أمامه سوى الدخول فيه .

وبما أن الرأسمالية قد قدمت للانسان التكنولوجيا والعلم وحرمته من الروادع الاخلاقية، وهو وضع ناقص وغير انساني ، فان الاشتراكية هي وحدها القادرة على بناء حضارة انسانية حقيقية عبر خلق انسان متحضر أساس مواقفه وتصرفاته هو منطلقاته الاخلاقية — الانسانية .

ان الاشتراكية اذ تعلم الانسان وتشبعه وتوفر له السكن الملائم والحرية الحقيقية والمساواة الموضوعية، واذ ترفق ذلك بسعي لاحدود له لانجاز التقدم العلمي ـ التكنولوجي بصفته أساس المجتمع المعاصر ، ان الاشتراكية اذ تفعل ذلك تضيق الى أبعد حد « الميول الانانية ، أو العدوانية » لدى البشر ، وتبلور وتنمي الميول الانسانية والاخلاقية فيهم •

من هنا تبدو الاشتراكية، في عصرنا ، الوعاء الامثل لارقى حضارة ميزتها التكامل بين التقدم العلمي ـ التكنولوجي وبين التقدم الانساني الاخلاقي • ويترتب على ذلك ان الانسان الاشتراكي هو الانسان المتحضر حقا ، فيما الانسان الرأسمالي هو المتخلف بغض النظر عن كل تقدمه التكنولوجي ، لانه بلا اساس أخلاقي أو رادع انساني •

٨ ـ ورغم هذا فان الاشتراكية لا تعتبر ، على الاطلاق ، ان مشكلة الانسان هي مجرد خبز وحرية ،

لانها تنظر الى الانسان في كليته ، أي تنظر اليه بصفته مشروعا قابلا للتغيير بصورة مستمرة ، وبالتالي فان نوعية حاجاته وطرق تفكيره وأنماط معيشته تتبدل تبعا لتبدل اوضاعـــه .

وتلك الحقيقة تنســف الادعاء الذي يقــول بأن الاشتراكية اذ تشبع الانسان ، تخدر فيه الحافـــز للابداع ، لان كون الانسان مشروعا لم يحدد بدقـة حسابية ، يفتح آفاقا لانهائية لتطوره وتفتحه في ظـل ظروف عادلة وملائمة ، هي ظروف الاشتراكية .

الاشتراكية والاشباع المادي

وما دمنا بصدد المفهوم الاشتراكي للحضــــارة من الضروري الاشارة ولو سريعا الى حقيقة جوهرية : اذ أن بعض التجارب والقوى السياسية والايديولوجيات الأممية ترى أن الاشتراكية بالاساس هي عملية اشباع الجياع ، وبالتالي فان تأمين الخبز والثقافة للمجتمع هو وحــده العامل الحاسم في خلق الحضـــارة .

وهذا المفهوم واجه تحديا لم يستطع التغلب عليه حتى الان ، ففي بعض البلدان التي بنت الاشتراكية واشبعت البطون ووفرت ثقافة واسعة للجماهير لم يتحقق التحول المنشود نحو الحضارة الانسانية الحقيقية بل برزت اتجاهات غريبة : الكفر بالاشتراكية والمناداة بالعودة الى الرأسمالية !

والملفت للنظر ان هذه الاتجاهات قد برزت من بين الطبقة العاملة التي يفترض فيها النضال من أجل تعميق الاشتراكية ! فلماذا حصل ذلك ؟ ببساطة لان التجارب الاشتراكية بنيت على أساس الصيغ المفروضة من الخارج في عصر تعزز الاحاسيس والروابط القومية في العالم كله .

لقد افترض البعض أن الاشتراكية يمكن أن تحقن في بدن الامة اصطناعيا وكنتيجة لتأثيرات خارجية ، حتى لو تناقض ذلك مع خصائص المجتمع ومميزاته الثقافية والاجتماعية . لذلك كان رد الفعل الطبيعي هو

مناهضة الالحاق والفرض اللذين واكبا عملية « زرع » الاشتراكية ، وبالتالي برزت مسألة الحرية الانسانية بصفتها المطلب الجوهري الانساني الثاني ، جنبا الى جنب مع المطلب الانساني الآخر : الخبز والمساواة .

بسبب السعي وراء الحرية وحق تقرير المصير افسدت تجارب اشتراكية عديدة وبرز تناقض حاد بين المفاهيم العالمية السائدة للاشتراكية وبين الحرية ، وأصبحت الاشتراكية مقترنة بالقسر والنزعات الشمولية (التوتاليتارية) ، وهو أمر خلق جدارا عازلا بين الاشتراكية والتحضر بمعناه التحرري الذي يمنح الانسان مقدرة عالية على اتخاذ القرار وحرية التفكير .

المفهوم الاشتراكي للحضارة الذي سبق وان عرضناه ، لايقصد به تلك المفاهيم أو النماذج الاشتراكية التي فصلت الحرية عن اشباع البطون ، بل المقصود هو الاشتراكية القومية التي تستند بالاضافة الى

اشباع البطون وازالة الاستغلال الطبقي ، الى احترام الارادة القومية للامم التي تختار الاشتراكية بحرية ودون قسر أو زرع من الخارج ، والى جعل الفرد يؤمن ، بلا اكراه ، بأن الاشتراكية هي الخيار الأفضل والأكثر انسانية وحرية .

وطبقا للاشتراكية القومية فان تأمين الخبز والكرامة والحرية بشكل متلازم ، يجعل الانسان قادرا على هضم التطورات العلمية ، التكولوجية الحديثة ومستعداً لمحاورة الثقافة الانسانية وغربلتها وهضم الايجابي منها، كما يجعله قادرا على غربلة تراث أمته وتمييز العناصر الحية الايجابية فيه عن العناصر الميتة والتي تجاوزها الزمن ، تمهيدا لقيامه بمزاوجة ارثه الثقافي بالنتاج الثقافي العالمي الحديث .

وبذلك نمنع تحول الاشتراكية الى عبء ثقيل يجثم على صدر الامة ويزهق أنفاسها ، ونسمح لها بأن تكون مصدرا لتفاعل عميق بين كل ماهو انساني صميم وما هو علمي وتكنولوجي .

والمفهوم الاشتراكي القومي للحضارة ، وان كان من نتاج حزب البعث العربي الاشتراكي الذي أشار اليه في أدبياته تحت أسماء مختلفة : (الخصوصية ، الطريق القومي للاشتراكية ، الحرية ، احترام مبادرات الفرد وعدم سحق نزعاته الانسانية ، الخ) ، فان العالم الثالث ، وهو يبحث عن ذات متميزة في عالمنا ، قادر على تبنيه من زاوية محددة : ان المفهوم الاشتراكي القومي يركز على ضرورة اكتشاف خصائص الامة المميزة لها واحترامها ومزاوجة الاشتراكية بهذه الخصائص بطريقة خلاقة تضمن في آن واحد : احترام الشخصية القومية للامة بما في ذلك تأمين أسهام شعبي شامل في بناء التجربة الجديدة ، وازالة مصادر الجوع والاستغلال الطبقي .

(٤)

المشاكل المركبة للحضارة

ان عرض وتحليل الخط العام للمفهومين البورجوازي والاشتراكي للحضارة يظهر لنا الكثير من الاراء الخاطئة ويسلط الاضواء عليها • بيد أن ذلك كله لايكفي ولايغطي كل التساؤلات المطروحة ، فالحضارة المعاصرة التي اقترنت بالانبثاق في أمم غربية رأسمالية، وكثمرة للتطور الرأسمالي ، قد انتقلت الى العالم كله وأصبحت بدرجات مختلفة أساسا لحياته ، رغم التباين الهائل في النظم الاجتماعية في العالم ، والتي ينتمي بعضها الى الرأسمالية المتخلفة ، أو الاقطاع ، أو حتى العبودية !

وهذه الحقيقة تطرح واقعة معقدة : ان الحضارة الرأسمالية (علم + تكنولوجيا + ثقافة) نقلت من

مناخها الذي ترعرعت فيه الى مناخ مغاير لعملية تطورها الطبيعي ، وبالتالي فان عملية التفاعل ما بين الحضارة الراسمالية المنقولة والمجتمعات المختلفة التي نقلت اليها ، تبدو معقدة ليس فقط على صعيد أشكال هذا التفاعل فقط ، بل على صعيد نتائجه أيضا . من هنا تطرح مهمة تحديد بعض أشكال تعقيدات نقل الحضارة وتحليلها على أساس أن ذلك مدخل لتجاوز الوضع الراهن .

النقـل والنمـو

هناك ظاهرة قد تبدو غريبة لمن لا يبحث عـن الجذور ، وهي أن مقارنة مثقفين أحدهما ينتمي للعالم الثالث والآخر للقسم المتقدم من العالم الرأسمالي ، تظهر « تفوقا » للمثقف البورجوازي على مثقف العالم الثالث رغم أنهما يتمتعان « بذكاء » متقارب .

و« التفوق » البورجوازي يبدو واضحا في توفر الصفات التالية في المثقف البورجوازي اكثر من توفرها في مثقف العالـم الثالث :

ا ــ النزعة المنطقية ــ العقلانية في فهم الظواهـر والتعامـل معهـا .

ب ــ ردود الفعـل الهادئـة .

جـ ــ النزوع نحو الشمولية في فهم الظواهر (تاريخها ، جذورها ، علاقاتها ... الخ) .

د ــ الاعتراف بوجود نطاق محدد لمقدرته ، وتبعا لذلك العمل والتفكير على أساس وجود « مقدرة أخرى » •

هـ ــ تقبل الهزيمة والاحباط كجز من عملية الفهم ، والحياة بصفة عامة •

مقابل هذه الصفات لدى المثقف البورجوازي نجد مثقف العالم الثالث يتمتع بقدر محدود منها على الاغلب، فهو يفكر على نحو رومانسي (عاطفي ، منحاز مسبقا) ، ويستسلم لانفعالات لاضرورة لها ، ويقتصر عن محيط وتاريخ وجوهر الظاهرة مكتفيا بدراستها مقطوعة عن المحيط ، وهو أخيرا يصعب عليه الاعتراف بحدود لمقدرته وبوجود « مقدرة أخرى » ، كما يصعب عليه الاعتراف بأن الفشل والاحباط جزء من الحياة •

اننا اذ نثبت هذه الملاحظات لا نريد تفضيل المثقف البورجوازي على مثقف العالم الثالث ، كما أننا لانريد ، ولا نهدف ، الى اعتبار هذه الصفات « صفات مطلقة »

أو لصيقة بالشخصية البورجوازية بايولوجيا ، بل كل الذي اردناه هو التنبيه الى التأثيرات العميقة لظروف التربية والنشأة الاجتماعيتين على كل منهما ، فالانسان يمتاز بأنه قابل للتأقلم مع محيطه ولامتصاص المؤثرات منه مهما كانت متناقضة (سلبية أو ايجابية) ، ولذلك فان وجود صفات معينة بقوة ، وأخرى بضعف ، لايفسر الا على أنه ثمرة تباين المحيط .

لماذا هذا التفوق للمثقف البورجوازي ؟ هناك أسباب عديدة ، لايدخل قسم منها في بحثنا هذا ، لذلك سنختار الاسباب المتعلقة بالحضارة . وأول ، وأهم ، سبب هو أن تلقي كلا المثقفين للحضارة قد تم على أسس مختلفة كلية ، ففي حين ظهرت الحضارة في العالم الرأسمالي بصورة نشوء بطيء ومتدرج لواقع جديد ، بصورة طبيعية ، وعلى أرض الغرب ومناخها ، فان الحضارة ، أو بعض مظاهرها ، قد ظهرت في العالم الثالث ، في عصرنا ، بصورة نقل أو استيراد لمنجزات جاهزة ومكتملة .

ولا تبرز قيمة هذه الحقيقة الا اذا درسنا الملاحظات التاليــة :

أ ـ مجافاة المناخ

ان رسوخ الحضارة في الغرب واضح وثابـت لسبب بسيط هو أنها نشأت في مجتمعات غربية واستجابة لتطور موضوعي هناك ، فيما حصل العكس في العالـم الثالث ، حيث نقلت الحضارة اليه مع أن أوضاعه كانت مختلفة لانها لم تصل آنذاك مرحلة الرأسمالية الصناعية التي ولدت الحضارة المعاصرة .

ان المجتمع الرأسمالي الصناعي يهضم حضارتـه الصناعية لانها تطور طبيعي نشأ في رحمه وبسبب توفر عوامل معينة ، لكن المجتمعات الاقطاعية والعبوديـة والاستقراطية ، وحتى الرأسمالية التجارية ، لا تنتج حضارة صناعية على الاطلاق ، واذا استوردت اليـها فانها لا تهضمها ، أو تتقبلها كمـا تتقبلها مجتمعـات رأسمالية صناعية ، لذلك تبدو الحضارة المنقولة الى

مجتمع غير صناعي مهزوزة وغير مستندة على قاعـدة اجتماعية قوية بعكس ما يحصل في مجتمع صناعي • وهذه هي احدى نتائج النمو التلقائي في الغرب والنقل الميكانيكي في العالم الثالث •

ب ـ سوء الهضم

ان الثقافة المعاصرة قد تكون أساسها في الغرب (أوربا وأميركا الشمالية) في أثناء النمو الهائل للرأسمالية التجارية وانتقالها الى الرأسمالية الصناعية التي أنتجت الثورة التكنولوجية المعاصرة • ان العلوم الانسانيـة (علم النفـس ، السوسيولوجي (علـم الاجتماع) ، التاريخ ••• الخ) والاداب والفنون (الرواية ، القصة، الشعر الحديث ، الفنون الجميلة ••• الخ) والاعراف الاجتماعية قد تبلورت في الغرب بعد تطور طبيعي هناك في مناخ الانتقال من عصر الرأسمالية التجارية الى عصر الرأسمالية الصناعية •

وبسبب هذه الحقيقة فان نمو الثقافة هناك كان متدرجا وبطيئا يعكس حاجات قائمة فعلا ويلبيها ، وهذا التدريج في النمو الثقافي واستيعابه على نحو خلاق ومبدع دون غموض أو هضم اجباري يؤدي الى « سوء هضم » .

لكن هذه الثقافة ، حينما نقلت الينا على شكل آداب وفنون ونظريات ، بدت وكأنها « صدمة » نظرا لجدتها وغرابتها بالنسبة لمجتمع مختلف كلية بثقافته وتراثه ودرجة تطوره العلمي والتكنولوجي . من هنا كان رد الفعل الرئيس ينحصر في موقفين : موقف الفعل الآلي الكامل لهذه الثقافة والذي التزمه أفراد «متغربون» ، وموقف الرفض المطلق الذي التزمه « السلفيون » . وكانت النتيجة بقاء الثقافة المستوردة أسيرة تقبل أعمى غير نقدي من جهة ، أو رفض انعزالي جامد من جهة ثانية ، رغم بروز « رد فعل » ثاني ، أقل قوة ، تمثل في محاولة هضم الثقافة الغربية على نحو مدروس ومتدرج وبما يتلاءم مع واقعنا الخاص .

الذين قبلوا الثقافة المستوردة كانوا مسحورين بما تضمنته من اتجاهات ومكتشفات ونظريات جديدة ومثيرة عن المجتمع والانسان والكون ، فراحوا يحاكونها وينحون منحاها في نتاجهم وطرائق تفكيرهم ، من هنا نشأت اول مظاهر التداعي والضعف لديهم ، اذ أن نشوءهم في مجتمعات تنطوي على ثقافات مختلفة كلية، وتشربهم منذ الصغر بهذه الثقافات وآثارها السلوكية والتفكيرية ، قد أنتج وضعا لدى الفرد المثقف ميزته تقبل ثقافة جديدة وغريبة في حين أنه بقي يحتفظ بأساس ثقافته القديمة والراسخة والمناقضة للثقافة الجديدة !

بتعبير آخر : المثقف لدينا اذ يتقبل ثقافة الغرب ، سواء كان يساريا أو يمينيا ، يقع تحت تأثير مزدوج ومتناقض : ثقافة جديدة غير راسخة فيه تحرك في اعماقه كل نوازعه نحو المعرفة والتجديد وثقافة قومية أصيلة راسخة وقوية في داخله ، لكنها لا تكفي وحدها لتفسير وقائع عالمنا الجديد . ان الوقوع فريسة لهذا التأثير

يؤدي حتما الى تذبذب واضح وتناقض يظهر هنا أو هناك ، لدى المثقف في العالم الثالث ، قد يقوده الى حالات يأس تام أو انتقالات حادة قد تبدو غير مفهومة .

صحيح اننا في عصر تنتقل فيه كل الاشياء ، بيد أن الاكثر صحة هو أن الانتقال لا يفضي بالضرورة الى التفاعل الايجابي أو المطابقة بين الشيء المنقول والمحيط الجديد ، الامر الذي يعني ، تحديدا ، أن عملية نقل الثقافة من الغرب (سواء كانت ثقافة تقدمية أو رجعية) الى العالم الثالث مع الافتقار الى المناخ الملائم لها عندنا ، قد وضع المثقف ازاء تحد قاس يتجلى في انسحاقه تحت وطأة جذب مؤثرين متناقضين . وهذا الواقع يفسر الكثير من مظاهر التذبذب والحدية والتسرع في تفكير بعض المثقفين في العالم الثالث . وهو ذاته الذي يفسر لم يتميز المثقف الغربي بالاستقرار والمرونة والتأني .

ج ـ تبدلات حادة :

أما على صعيد اجتماعي فان مشكلة نقل الثقافة تبدو اكثر خطورة ويتجلى ذلك في تعريض المجتمع الذي

تنقل اليه الثقافة، الى تغييرات حادة لم تنشأ تلقائيا فيه نتيجة التطور الموضوعي والبطيء ، وانما فرضتها عملية النقل ذاتها .

ان الاسس الرئيسة للحياة في مجتمعات الغرب قد تبلورت عقب تراكمات نوعية ولدتها الثورة الصناعية في ظل النظام الرأسمالي ، من هنا طبعت هذه الاسس بالخط العام للايديولوجيا البورجوازية ، وبالاخص اندثار التمايزات الاجتماعية السابقة للرأسمالية أو ضعفها، كالروابط العشائرية والدينية والطائفية والقومية وبروز المصالح الرأسمالية كقيمة ومعيار مصطلقين هناك.

وأي دراسة متعمقة للفكر الغربي تكشف بسهولة أنه فكر كوزموبوليتي(*) يتخطى الاطارات السائدة في المجتمع البشري من جهة ، كما أنه فكر يتعامل مع الفرد «العامل» بصفته مجردا من كل صفاته الاجتماعية ماعدا صفته كقوة عمل منتجة من جهة ثانية .

ما الذي يعنيه ذلك ؟ ان كوزموبوليتية الفكـر الرأسمالي اذ تعبر عن واقع تطور الامم الرأسمالية المتقدمة تشكل بالنسبة للامم الناهضة في العالم الثالث تحديا حقيقيا لنهوضها عبر نفيها للرابطة القومية وتجاوزها للروابط الاخرى السابقة للقومية كالارتباط بعشيرة أو دين أو طائفة ... الخ . اننا ، وبغض النظر عن رأينا الخاص بالروابط السابقة للقومية كالعشائرية أو الطائفية، لا نستطيع القفز من فوقها في وقت تمارس فيها تأثيرات حقيقية على شرائح اجتماعية معينة . والموقف الصحيح هو الذي يأخذ بنظر الاعتبار أهمية الدراسة المتأنية ، المرفقة بشروط أجتماعية ـ اقتصادية لهذه الظواهـر ومحاولة التقليل من آثارها داخل الامة لصالح تعزيز الرابطة القومية ، بصفتها الاطار والمناخ الملائم للنهضة المعاصرة في العالم الثالث .

ماذا يحدث حينما نحاول تطبيق قواعد ومواصفات فكر أممي ، كالكوزموبوليتية ، على أمم لـم تتجاوز بعد مراحل العشائرية والفئوية ؟ واضح أن حصول ذلك

سيؤدي حتما الى تناقضات قاسية واضطراب اجتماعي عميق لا يخدم الامة ، نظرا لان الروابط السابقة للامية تبقى تفعل فعلها بقوة رغم « فرض » قوالب التفكير الامـــي .

واستنادا الى ذلك يستطيع مجتمع من العالم الثالث يخضع لسلطة سياسية « متنورة » تخطت الروابـــط السابقة للامية ، أن يقيم بناء حضاريا ملموسا كالعمران والمعامل والطرق ووسائل النقل الضخمة والكومبيوتر . ولكن الامر الاكيد هو أن هذا البناء سيكون عرضة لنمط من الاضطرابات يندر حصولها في مجتمع عربي أوربي . ويكفي ان نشير الى بعض الامثلة : أغلب الاجهزة الصناعة المستوردة لاتستخدم عند الحد الاعلى لكفاءتها ولاتتم صيانتها تبعا للاسس الموضحة في كتب التعليمات ، العاملون (عمال ومهندسون ومديرون) لايعتبرون الوقت عنصـــرا حاسما في الانتاج لذلـــك يضعف التقيد بالدوام الرسمي وتزداد ظاهرة الوقت غير المستخدم ، هؤلاء العاملون يتعرضون لتمزيق حاد

لروابطهم القوية ، كالرابطة العشائرية أو المحلة أو العائلية ... الخ ، عبر تقلهم الى أماكن عمل بعيدة وفي مناخات مختلكة وبأجور جديدة ، الامر الذي يقلب رأسا على عقب نمط حياتهم ويفرض عليهم نمطا آخرا لم يألفوه .

اننا نستطيع أن نعد مئات الامثلة على الآثار السلبية التي يخلقها نقل الثقافات والخبر والاجهزة من مجتمع متقدم تجاوز الروابط السابقة للامية ، الى مجتمع مازال يطمح في احلال الرابطة القومية محل الروابط السابقة لها .

ان صدمة حضارية قوية تصيب مجتمعا ظل مغلقا ، أو منغلقا ، لمئات السنين في اطار التخلف ، النسبي والمطلق ، ثم فجأة ننقله الى « عالم جديد » يسحق كل الروابط التقليدية ويضع الانسان ازاء الوجود مجردا من كل روابطه التقليدية ! ونحن ما زلنا نسمع ونقرأ عن حوادث « اختلال توازن » اناس « متزنين » ذهبوا

الى الغرب للدراسة أو العمل أو الزيارة . كما أننا ما زلنا نرى عوائل كاملة تحدد ذوقها وميولها في ضوء الموجات الآتية من الغرب عبر السينما والتلفزيـــون والاذاعات والكتب والمجلات ، رغم أن هذه العوائل ، أو قسما منها على الاقل ، مازالت تقتات على ذخيرتهـا التقليدية من الافكار ومحددات التأثير .

لقد دخلت الثقافة المستوردة لتصبح أحد أهم عناصر نسف الاسس التقليدية في المجتمعات النامية ، بطريقة لا تسمح بامتلاك البديل الراسخ الملائم ، لذلك يشعر الفرد الذي نسف أساس بواعثه في سبيل اساس جديد ، انه « فقد الخيط والعصفور » أي دمر أساسه الطبيعي دون أن ينجح في خلق بديل ملائم ومطابـق لواقعه . من هنا أصبح المجتمع يقاسي مـن اضطراب وازدواج وتناقض قيمه وبواعث السلوك فيه . وهذه الظاهرة لم تواجها الامم الغربية نظرا لانها هي التي احتضنت كل أسس الثقافة الغربية وفرزتها بصـــورة

تلقائية ومتدرجة دفعتها الى تجاوز متدرج لاغلب الروابط السابقة للامية .

د ـ الاضطراب الاخلاقي

ان سحق الرأسمالية للروابط السابقة للامية يتضمن سحق الرابطة العائلية وجعل الفرد يرتبط بمفرده، أي مجردا من كل علاقاته ، بالعمل . ويعود السبب الى أن الرأسمالية بحاجة « لوحدة » عمل ، أو « لآلة حية » تتقن عملها وتؤديه بأفضل صورة دون مؤثرات مهما كانت . وهكذا تكون الصورة : الفرد ينغمر في العمل منذ التاسعة صباحا حتى الخامسة والنصف مساء ، في هذا الوقت يعتصر جهده الى أقصى حد ممكن وحينما ينتهي عمله يكون أمام بابين اسودين مغلقين .

الباب الاول أنه منهك تماماً ويحتاج للراحة ، والباب الثاني أن النهار قد انقضى كله وما عليه سوى الجلوس في البيت أو خمارة نائية . وفي كلا الحالتين تكون النتيجة هي ضيق أفق حياته وحلول

الرغبات السريعة والحادة محل الميول الهادئة والمتزنة ، وهو وضع يساعد على تفسخ روابطه العائلية والاخلاقية ويلقيه في حلبة الحياة وحيدا منعزلا .

وبتكرار هذه الظاهرة عدة أجيال أصبح الاساس الاخلاقي والاجتماعي نشأ عن ضرورات العمل الرأسمالي السريع والمباشر للنزوات الانسانية وعلى نحو فردي لا يراعي ، ولا يحترم ، الاطار الاجتماعي لحياته . ولذلك وبعد ان حلت الفردية والوحدة المرفقتين باشباع اناني للرغبات ، أصبح المجتمع يواجه ضرباً من التحلل الاخلاقي للحياة الرأسمالية يقوم على أساس الاشباع ولكن هذا التحلل لم ينظر اليه على أنه حالة مدانة ومرفوضة لسبب بسيط ، هو أنه حالة عامة يشترك فيها المجتمع بغالبيته من جهة ، كما أنه تعبير أصيل عن تطور موضوعي ماكان ممكناً ايقافه في ظل النظام الرأسمالي من جهة ثانية .

هذه الصورة لنمط الحياة نقلت الينا مع التكنولوجيا والثقافة فكانت النتيجة مدمرة لأوساط

اجتماعية عديدة ، فعبر اتصال زاد على نصف قرن انتقلت الى العالم الثالث الكثير من المعلومات والمؤثرات من العالم الرأسمالي بواسطة أجهزة الاتصال المختلفة (السينما ، التلفزيون ، الراديو ، الكتب والدوريات البعثات الدراسية ، السياحة ، الخ) . وقد تعزز تأثير أجهزة ووسائل الاتصال هذه حينما استوردت تكنولوجيا الانتاج الكلي ــ الشمولي (التوتاليتاري) ، كالمعامل الفخمة التي توجه بواسطة خبرة تكنولوجية متطورة ، وحينما دخلت الخبرة الرأسمالية لتصبح أساس العمل الاداري والدبلوماسي والفني لاجهزة الدولة المختلفة ، وهكذا وجد الفرد في العالم الثالث نفسه ازاء نفس التحدي الذي واجه الفرد الغربي منذ عقود : ــ انه ينتزع بقوة وباصطناع من محيطه العائلي والاجتماعي ويجرد دون وعي من روادعه الاخلاقية ، ليتحول الى « مسخ » نصف وحيد ، نصف ممزق الروابط !

ان هذا الفرد مازال الابن الشرعي لقيم مجتمعه الآخذ في التغيير ، ومع هذا اضطر للخضوع لمؤثرات

قيم مناقضة تفرزها طبيعته العملية الانتاجية في ظل علاقات انتاج رأسمالية أو شبه رأسمالية ، فكانت النتيجة هي أنه وضع قدماً هنا وقدما هناك فأصبح بحكم انهاكه واستثماره وضيق وقته مستعدا للتحرر من قسم ، أو كل ، قيمه أو روادعه التقليدية والتصرف على نحو مباشر وسريع واناني ، بالضبط مثلما حصل للانسان الغربي ، مع فارق أن الاول ، وهو يتحرر من روادعه التقليدية ، يقع أسير احساس بالانحطاط والسقوط مبعثه بقاء روادعه مؤثرة حتى بعد ان تحرر منها ، نظرا لانها استمرت في التأثير على المجتمع بغالبيته ولم تمت او تستأصل كما حصل في الغرب .

من هنا يبدو واضحاً ان ظاهرة التحلل الاخلاقي التي برزت في السنين الاخيرة ، بوضوح ، في العالم الثالث لاتأتي في سياق تطور طبيعي يمكن استيعابه كجزء من عملية حركة المجتمع كما حصل في الغرب ، بل حدثت كثمرة للنقل الثقافي - التكنولوجي ولذلك

لم تتوفر امكانية استيعاب أو احتواء التحلل الاخلاقي في اطار حركة المجتمع الطبيعية ، بل أصبح أحد اهم عوامل تخريب المجتمع وتأخره وقمع بوادر التحرر الحقيقي فيه .

هـ ـ آثار نقل التكنولوجيا

واذا تركنا الآثار الفردية والاجتماعية لنقل الحضارة وحاولنا معرفة آثارها السياسية والاقتصادية اكتشفنا أننا ازاء تحديات ثلاثة : التحدي الاول هو أننا حينما نستورد التكنولوجيا ، على أساس أنها أساس الحضارة ، فانما نستورد مستوى محددا منها وليس المستوى الافضل ، فمن المعروف الآن ان الدول الصناعية المتقدمة لا تبيع للعالم الثالث الا ذلك المستوى من التكنولوجيا الذي تجاوزته ، باختراع مستوى أرقى ، فأصبح من الضروري تصديره لكي يستخدم الاكتشاف الجديد . وهذا يعني أن دول العالم الثالث لا تستطيع سوى استيراد تكنولوجيا متخلفة ،

وبالتالي فانها تبقى أسيرة نوع من التبعية الموضوعية للدول الصناعية المتقدمة .

التحدي الثاني هو أن نقل التكنولوجيا على هذا النحو ، يؤدي الى بقاء هوة التطور قائمة في العالم ، ففي جانب تقف الدول الصناعية المتقدمة وهي تسير أمام الجميع ، وفي الجانب الاخر تقف دول العالم الثالث ، وهي تسير خلف الدول الصناعية . اذن لا أمل في ردم هوة التطور الحضاري بين هذين الجزءين من العالم ما دام العالم الثالث يعتمد على استيراد التكنولوجيا .

التحدي الثالث :

هو أن بقاء العلاقة على النحو المشار اليه سوف يبقي عملية النهب الامبريالي للعالم الثالث ويضفي عليها مسحة « قانونية » أو تجارية . ان استمرار التخلف الحضاري والصناعي في العالم الثالث يلزمه باستيراد حاجاته الاساسية من العالم الصناعي ، ولذلك فانه يضطر لحشد كل موارده (زراعة ، معادن ، قوة عمل)

لتوفير أثمان السلع المستوردة والاساسية • وبما أن العالم الصناعي هو الطرف الاكثر اقتدارا في العلاقات التجارية الدولية ، فانه يفرض أسعارا على سلعه تصبح ستاراً « مشروعا » لنهب من نوع جديد لموارد العالم الثالث • ولذلك نرى العالم الثالث الان ، رغم كل جهوده وموارده ، فقيرا ومعوزا ، وينطبق هذاحتى على قسم من (أغنيائه) •

ان هذه التحديات الثلاثة تواجه العالم الثالث بجميع نظمه ، المتحررة وغير المتحررة ، ولم تبدأ حملة قارية أو عالمية لانهائها حتى الآن بشكل منظم • ولذلك فان الكثير من مجتمعات البلدان النامية هذه تعاني من الظواهر التالية بسبب التحديات المشار اليها :

١ ـ العجز عن اللحاق بالحضارة المعاصرة والبقاء عند مستوى الدرجة الثانية حتى بالنسبة لاكثر البلدان تقدما في الصناعة •

٢ ـ التعرض للاستنزاف المنظم ونهب ثروات البلـد المعنى سواء رغب بذلك أو لم يرغب وهو وضع يمنع تحقيق « تراكم ابتدائي » أو « تراكـم اشتراكي » لا يمكن تحقيق النهوض بدونه .

٣ ـ زرع أحاسيس « بالدونية » لدى أوساط معينة في العالم الثالث و «بالتفوقية» لدى أوساط معينة في العالم الصناعي ، بالنظر لوجود علاقة اعتماد من طرف واحد . وهذه الاحاسيس تترك آثارا سياسية واجتماعية مدمرة في العالم الثالث .

و ـ الابتزاز الحضـاري :

ونتيجة لاقتران الحضارة والتحضر بمنجزاتهـا المادية (تطور تكنولوجي ، تقدم عمراني وطبي وتنظيمي الخ) ، حسب التعريف البورجوازي ، وقبول هذا التعريف ضمنا أو مباشرة من قبل مثقفين وأوساط معينة من الجماهير في العالم الثالث ، فان هناك ظاهرة سلبية ، بل وتخريبية ، ظهرت عندنا ، وهي أن الذين

قبلوا التعريف البورجوازي أخذوا ينتهجون سلوكا شخصيا ، أو يتخذون مواقف سياسية واجتماعية ، لاتنسجم مع مصالح أمتهم أو واقعها ، وذلك بتأثير فهمهم الخاطيء لمعنى الحضارة .

ان الكثير من الفئات الاجتماعية تتطلع صوب الغرب الرأسمالي لمعرفة ما يستجد لديه من موضات وميول ومبتكرات ونقل هذه جميعا الى بلدانها كمظهر من مظاهر التحضر ، ويشمل هذا النزعات الاخلاقية المتفجرة في الغرب كثمرة لتطوره الموضوعي . وعملية النقل هذه اذ تتم من وسط ملائم الى وسط مجاف تجر المجتمع الذي نقلت اليه الى حالة فوضى واضطراب خطيرين يساعدان على تفككه واضمحلاله .

أما من الناحية السياسية فان الاثر التخريبي لتعريف البورجوازي لا يتضح الا اذا أخذنا نموذج السادات ، رئيس النظام المصري حيث انه قرن كل سياساته المناقضة كلية لمصالح الامة العربية ، وبضمنها

الشعب العربي المصري ، بالتحضر ، فالصلح مع الكيان الصهيوني ما هو الا « سعي وراء السلام ونبذ للحرب » و « احلال للتفاهم محل العنف » وتلك هي « ميزات الناس المتحضرين » ! بل انه راح يهاجم المعارضة الوطنية داخل مصر وخارجها عبر اتهامها « بالهمجية » و « عدم التحضر » و « التخلف عن مواكبة روح العصر » !

وبجهد بسيط يلاحظ المرء ان « تحضر » السادات ما هـو الا رداء لأبشع ردة حضارية يمكن للانسان الاقدام عليها . اذ أن التسليم للعدو بغزواته ومكاسبه القديمة والجديدة باسم « الرغبة في السلام » انما يعني التخلي عن اثنتين من اهم ميزات التحضر وهما :

١ ـ اقامة علاقات متكافئة بين الدول أساسها الاحترام المتبادل والاعتراف المتبادل بالمصالح المشروعـة القائمة على العدل والحقائق الموضوعية .

٢ ــ التمسك بموقف مبدئي أساسه المصالح القومية والانسانيــة ورفض الرضوخ لمنطق القــوة أو « الامر الواقع » .

لماذا فعل السادات ذلك ؟ لا نجد صعوبة كبيرة في اكتشاف أن السادات اذ يشعر في أعماقه بالتخلف والنقص الشخصيين يحاول عبر سلوكه (مظاهر الابهة التي اشتهر بها) ومواقفه (الارتماء في أحضان اميركا والكيان الصهيوني) نفي تهمة ، أو احساس ، أنه متخلف واضفاء طابع متحضر عليهما (سلوكه ومواقفه) . لقد رضخ ووقع أسير ابتزاز حضاري بارز تماما كما يفعل أي مراهق حينما يتخذ من الموضة السائدة في الغرب معيارا للاناقة والتحضر ومواكبة العصر !

اننا اذ نستخدم مثال السادات لا ندعي أنه الظاهرة الوحيدة ، لأن ثمة كثيرين يفعلون ما فعله بيد أنه نموذج متكامل ، تتوفر عشرات الادلة لجعله قابلا للدراســة الميدانية المتكاملة ، لظاهرة الخضوع للابتزاز الحضاري،

أي الخوف من الاتهام بالتخلف أو الاحساس الدفين بالتخلـــف .

ولئن كان الابتزاز الحضاري ، على صعيد فردي يفسد أفرادا ، وعلى صعيد اجتماعي يفسد فئات ، فيزداد الاضطراب الاجتماعي ، فان (الابتزاز الحضاري) على صعيد سياسي ينتج الخيانة القومية ، وفي أفضل الاحوال، المساومة مع العدو واتخاذ مواقف ضعيفة ازاءه .

٥ ـ خلاصة ختاميــة .

اذن ، كيف ينبغي أن نفهم معنى الحضارة ؟ هل يكفي توفير الشروط المادية للحضارة ، حسب التعريف البورجوازي ، لاطلاق صفة التحضر على بلد ما أو فئة ما ؟ أم ينبغي تخطي الشروط المادية ، بعد توفيرها ، والعمل علــى جعلها أساسا ومناخا لشروط شــخصية محــددة ؟

لنلخص عيوب وسلبيات التعريف البورجوازي أولا ، اذ أن هذا التعريف يؤدي الى :

١ ـ التناقض بين البناء الثقافي المستورد للفـــرد والاساس الاجتماعي ـ السايكولوجي القومـــي الذي يقتات عليه يوميا ، حيث ان الاستيرادالثقافي لايزيل الاساس القومي للفرد ، بل يعرضه للتحدي وربمـــا الضـــعف .

٢ ـ الانقياد ، الواعي وغير الواعي ، للنتاج الثقافي والاجتماعي الغربي حتى بالنسبة لافراد يساريين .

٣ ـ **الاضطرار للدخول في عملية مرهقة ، وهي نقل** التكنولوجيا ، دون تخطيط أو وعي ، وبطريقة تهدد استقلال البلدان المتحررة فيما تقوي قبضة الاحتكارات على البلدان التابعة .

٤ ـ بروز انهيارات اجتماعية حادة ومدمرة كالرضوخ للابتزاز الحضـــاري والازدواجية في المعايـــير والسلوك .

٥ ـ تفاقم التفسخ الخلقي بسبب الموجات المستوردة

٦ ـ تدني قابلية الابداع والنمو الخاصين في العالم الثالث .

لئن كانت تلك عيوب التعريف البورجوازي فان الضرورة تفرض تجاوزه واعتماد التعريف الاشتراكي كقاعدة للتثقيف الجماهيري ، فالتعريف الاشتراكي يثبت ما يلي :

١ ـ ضرورة اكتساب اكبر قدر يمكن استيعابه من المعارف والتكنولوجيا المعاصرة .

٢ ـ ضرورة البحث في التكوين الثقافي ـ الاجتماعي القومي الخاص بالامة التي تكتسب المعارف والتكنولوجيا الاجنبية ، وفرز ما هو تقدمي فيه عما هو متخلف ، ودمج الاول بعملية الثورة أو التثوير الاجتماعي التي تستخدم المعارف والتكنولوجيا كقوة ثورية . بتعبير آخر : ان المعارف والتكنولوجيا ينبغي أن تخضعا لخطين رئيسيين واضحين : خط قومي أساسه الاتصال بتاريخ الامة وتراثها ومنجزاتها التقدمية ، وخط

سياسي اساسه الانتقال بالامة من مرحلة التخلف والانقسام والاستغلال ووجود الامبريالية ، الى مرحلة الوحدة والاشتراكية والتحرر القومي ٠

٣ ـ وفي ضوء توفر الضرورتين السابقتين يمكن توفير أكبر قدر ممكن من شروط بناء الشخصية الانسانية الجديدة ٠ اذ أن التقدم التكنولوجي والمعرفي وتحرير الامة وبناء الاشتراكية ، انما هي ظروف ضرورية لخلق الانسان الجديد المتحضر والذي لايتصرف وفقا لقواعد الانانية والكذب والعدوانية والكسل ، وانما تهيء له هذه الظروف (التقدم التكنولوجي والثقافي والمعاشي) الفرص الكافية للتصرف بصورة انسانية راقية ومتحضرة وللنظر الى العالم نظرة تعاون واستعداد للتضحية ، مع التمسك بالمباديء الانسانية والعادلة في مجرى التعامل الداخلي والخارجي ٠

٤ ـ وهذا يعني أن التحضر لايقترن بالضرورة باكتساب « أرقى منجزات التكنولوجيا الحديثة » ، فنحن

نستطيع بقدر محدود من التكنولوجيا وقدر كبير من المباديء الثورية والانسانية أن نخلق الانسان المتحضر والمجتمع المتحضر . وهذه الامكانية العملية هي النقيض للامكانية المتحققة فعلا ، وهي أن الدولة التي تمتلك أرقى تكنولوجيا ومعارف ، وهي الولايات المتحدة الاميركية ، تفتقر الى الروح الانسانية والتطور الروحي الذي ينبغي أن يكون سمة للتقدم المادي . ولانعني « بالتطور الروحي » المفهوم التقليدي ، بل بالضبط نحن نعني تطور الشخصية الانسانية على أساس أخلاقي يجعل الفرد لايتصرف على نحو أناني وبدائي وعدواني . وضمن هذا الاطار فان التقدم التكنولوجي والمعرفي في أميركا لم يمنحها بعد صفة التحضر حسب التعريف الاشتراكي ، بل ان مفكرين بورجوازيين قد صرخوا مرارا : ان الحضارة الغربية هي ضرب من البدائية المغلفة باوراق ملونة .

د ـ كذلك هذا يعني أن الحضارة الحقيقية التي تخلق الانسان المتحضر لن توجد في ظل الرأسمالية على الاطلاق ، لان الرأسمالية تغذي أحط أشكال البدائية في السلوك الانساني ، وهي الاستغلال والكذب والانانية ، وكل ماتفعله الرأسمالية هو أنها تخلق الشروط المادية للحضارة لكنها تبقى مفتقرة الى الشروط الانسانية ، التي تتوفر فقط عبر الاشتراكية .

فالاشتراكية ، بتحريرها الانسان من الجوع والخوف والتهديد والتمييز والاستغلال وتوفيرها العمل والمساواة وسيادة القانون والرعاية الاجتماعية الكاملة ، تزيل أساس ولادة النزعات الانانية والعدوانية والاستغلال وتدفع الانسان صوب انتهاج سلوك انساني صادق ، نظيف ، أخلاقي منظم ، منتج ، تعاوني ... الخ وتلك هي أسس وشروط التحضر الحقيقية .

مطلع عام ١٩٨٠

الفهرس

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٤٨) لسنة ١٩٨٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

Little Encyclopedia

A Fortnightly Cultural Series dealing with various branches of Science, Art, and Literature

ISSUED BY THE MINISTRY OF CULTURE & INFORMATION BAGHDAD

Editor-in-Chief
Musa Kraidi

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

١٩٨٥

الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدرها دائرة الشؤون الثقافية والنشر
بغداد / شارع الخلفاء

الكتاب القادم : ما الانثروبولوجيا

د. قيس النوري
استاذ الانثروبولوجيا المشارك
قسم الاجتماع
جامعة بغداد

السعر : ٢٠٠ فلس

دار الحرية للطباعة ـ بغداد